المسيح « وجه الرّحمة » الإلهيّة

رسالة راعوية

لغبطة البطريرك فؤاد طوال

بطريرك القدس للاتين

لمناسبة

«سنة يوبيل الرحمة»

١ تشرين الأول ٢٠١٥

LPPRESS
JERUSALEM

مطبعة البطريركية اللاتينية – القدس
بيت جالا – ٢٠١٥

«كونوا رحماء كما أن أباكم رحيم»

(لوقا ٦: ٣٦)

الإخوة الأساقفة والكهنة، والشمامسة، والرهبان والراهبات، أيها المؤمنون الأعزاء،

في ١١ نيسان/أبريل الماضي، أعلن قداسة البابا فرنسيس سنة يوبيل الرحمة (٢٠١٥/٢٠١٦). وفي هذه المناسبة، اصدر قداسته براءة يدعو فيها إلى يوبيل الرحمة الإستثنائي، وكانت بعنوان «وجه الرحمة»، وتتألف من ٢٥ بندًا. وفي هذه الرسالة الراعوية، نودّ أن ندعو جميع ابنائنا، من اساقفة وكهنة وشمامسة ورهبان وراهبات وعلمانيين، إلى التجاوب مع هذه المبادرة، كي تكون سنة نعمة وبركة لنا ولمجتمعاتنا التي تعيش اليوم أصعب الأوقات وتعاني من قسوة الإنسان تجاه أخيه الإنسان حتى الكراهية والموت.

قبل أن نلخّص معاني هذه البراءة (القسم الثاني)، نودّ، في البداية، شرح معنى اليوبيل أو السنة المقدسة بشكل عام (القسم الأول)، لنصل إلى المعاني الكبرى للرحمة الإلهية في ضوء هذه البراءة (القسم الثالث).

القسم الأول

«سنة الرضى» أو «سنة اليوبيل» في الكتاب المقدّس وفي سيرة السيد المسيح

يخبرنا القديس لوقا (٤: ١٦–٣٠) ، أنّ يسوع دخل المجمع في يوم سبت في الناصرة «حيث نشأ»، وقرأ من سفر أشعيا (٦١: ١–٢): «روح الرب عليّ لأنه مسحني وأرسلني لأبشّر المساكين وأجبر كسيري القلوب وأدعو لسنة رضى للرب». سنة الرضى كانت تحلّ عند اليهود كلّ خمسين عام، كانت تُعاد فيها الممتلكات إلى أصحابها وتستريح الاراضي من الفلاحة ويُطلَق الأسرى ويُحرَّر العبيد. والربّ يسوع أعلن أن سنة الرضى، أي «السنة المقبولة لدى الرب»، تمّت بوجوده ومعجزاته وبشارته.

في تاريخ الكنيسة، بدأ البابا بونيفاسيوس السابع بإعلان سنة ١٣٠٠م سنةً مقدّسة. وكانت نيّته أن تُعلَن سنة مقدسة مرة في كلّ قرن، أي كلّ مئة سنة. ولكن منذ سنة ١٤٧٥م، نشأت فكرة بنّاءة مفادُها أن يستفيد كلّ جيل من المؤمنين من سنة يوبيل، فأصبحت «السنة المقدَّسة تُعلَن كلّ ٢٥ سنة. ومع الوقت، وجد البابوات أنّ مناسبات فريدة أو استثنائية كانت تقضي بإعلان سنوات يوبيل استثنائية: مثلًا عام ١٩٣٣، أعلنه البابا بيوس الحادي عشر يوبيلًا للفداء بمناسبة مرور تسعة عشر قرنًا على ذبيحة الرب على الصليب لخلاص البشر. أمّا البابا القديس يوحنا بولس الثاني، فقد أعلن عام ١٩٨٣ سنة مقدّسة بمناسبة

مرور ١٩٥٠ عامًا على الفداء. وكانت آخر سنة مقدّسة عام ٢٠٠٠ بمناسبة بداية الألفية الثالثة لميلاد الرب يسوع المسيح في الجسد. وهكذا يكون عدد السنوات المقدسة ستًّا وعشرين قبل هذه الأخيرة التي أعلنها قداسة البابا فرنسيس.

أبواب الرحمة في روما وفي أبرشيتنا

السنة المقدسة وقت نعمة ورحمة ومصالحة وتسامح ورأب لكلّ صدع واستغفار واسترحام وتقارب مع الله والنفس والقريب. وتبدأ السنة المقدسة رسميا بفتح «الباب المقدس» في كنيسة القديس بطرس في روما، ويليه فتح الأبواب المقدسة في الكنائس الثلاث الكبرى في روما وهي: كنيسة القديس بولس خارج الأسوار، وكنيسة القديسة مريم الكبرى، وكنيسة القديس يوحنا في اللاتران.

الكنائس التي اختيرت لفتح ابوابها في أبرشية القدس في سنة اليوبيل هذه هي كنيسة الجسمانية في القدس وبازيليك البشارة في الناصرة، وبازليك القديسة كاترينا بسبب كونها قرب مغارة الميلاد، ومزار سيدة الجبل في عنجرة–الأردن.

القسم الثاني

المعاني الكبرى للرحمة

في هذا القسم، ايها الإخوة والأبناء الأحباء، نودّ أن نتوقف عند بعض المعاني الكبرى للرحمة الإلهية، في ضوء براءة قداسة البابا فرنسيس وامتدادا لها، كي تكون موضع تأمل، وبالتالي موضوع شهادة في كل مجالات حياتنا.

من الله الرحيم إلى الإنسان الرحيم

في العهد الجديد مثلان ليسوع يُظهِران بجلاء العلاقة العميقة بين رحمة الله لنا ورحمتنا نحن تجاه الآخرين، وهما مثل «الابن الضال» (لوقا ١٥: ١١–٣٢) ومثل «السامري الرحيم» (لوقا ١٠: ٢٥–٣٧). في المثل الأول، يكشف لنا السيد المسيح عن رحمة الله اللامحدودة تجاه الخاطئ. وفي المثل الثاني، يبين لنا كيف أن هذه الرحمة تنتقل من الله إلى الإنسان، كي تجعله رحيما تجاه أخيه الإنسان. إن الرحمة تنبثق من قلب الله، وتتجسّد في يسوع المسيح، وتحلّ في قلب الإنسان لتجعل منه قلبا رحيما. إن اختبار رحمة الله لنا هي الطريق الذي يؤدي بنا إلى رحمة إخوتنا وأخواتنا. بدون اختبار رحمة الله لنا، يصعب علينا أن نكون رحماء تجاه غيرنا. إن رحمة الله لنا تؤسّس لرحمتنا لغيرنا: «كونوا رحماء، كما أن اباكم السماوي رحيم» (لوقا ٦: ٣٦).

رحمة بلا حدود

من الملاحظ، في مثل «السامري الرحيم»، أن يسوع اختار شخصية سامرية من مدينة نابلس وجعلها تتعامل بالرحمة مع اليهودي، الذي وقع بين أيدي اللصوص، فتُرك على قارعة الطريق بين حيّ وميت، وبين اليهود والسامريين عداوة قديمة ومستفحلة. ويريد يسوع بذلك أن يكشف لنا أن الرحمة تتجاوز كل الحدود والسدود والحواجز والجدران. فهي رحمة للإنسان لأنه إنسان، بعيدا عن اعتبارات عرقه، أو ديانته، أو مذهبه، أو طائفته، أو لونه، أو لغته، أو قوميته، وغير ذلك من الاعتبارات. كما أن رحمة الله للبشر لا تعرف الحدود، كذلك رحمة الإنسان لأخيه الإنسان لا تعرف الحدود. من الطبيعي أن تتوجّه الرحمة إلى الجميع، ولكنّها تتوجّه، بشكل خصوصي، إلى الفئات الضعيفة في المجتمع: الفقراء، والمُهمَّشين، والذين قذفتهم المجتمعات إلى ضواحي المدن الكبيرة حيث يعيشون في الفقر المُدقع، والمُهاجرين، والمُهجَّرين، واللاجئين، والمظلومين، والمحرومين، والضعفاء بكل أنواع الضعف.

رحمة عمليّة

ليست الرحمة عاطفة عابرة، تحرك «الأحشاء» وتتوقف عند هذا الحد، بل إنها التزام عملي ملموس وخلّاق يأخذ مجراه في الكائن البشريّ. في مثل «الابن الضال»، لم يتوقف الأب عند عاطفة الشفقة («تحركت أحشاؤه»)، بل نراه يسرع إلى ابنه ويعانقه ويرده إلى كرامته الأولى، ويغدق عليه مكارمه، ويقيم له مأدبة كبرى. وكذلك «السامري الرحيم»، فإنه، بعد أن «اشفق»، نراه يتّخذ المبادرة العملية الواحدة تلو الأخرى، لمداواة الجريح فضمد جراحه (دنا منه، ضمد جراحه، حمله

على دابته، ذهب به إلى فندق، واعتنى بأمره، وأنفق عليه...). وينهي يسوع هذا المثل بقوله: «اذهب فاعمل أنت ايضا مثل ذلك» (لوقا ١٠: ٣٧).

هناك أعمال الرحمة الروحية (التعليم، والنصح، والتعزية، والتشجيع، والمغفرة، والاحتمال بصبر) وأعمال الرحمة الجسدية (الإحسان، وإطعام الجياع، وإيواء من ليس لهم منزل، وإكساء المُحتاجين، وعيادة المرضى، وزيارة السجناء، ودفن الموتي) (راجع التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، البند ١٤٤٧). وهذا ما يضع المؤمن أمام قوس واسع من أعمال الرحمة التي يمكن أن يقوم بها، بحسب ظروفه ومواهبه وعطايا الله له، في هذه السنة المكرَّسة للرحمة.

نعم للخاطئ ولا للخطيئة

طيلة رسالته الأرضية، قاوم يسوع الخطيئة بكل اشكالها بلا هوادة، لأنها تفسد الإنسان وتشوّه صورة الله فيه. لقد سعى بغير انقطاع إلى شفاء الإنسان في جذوره وفي ينابيعه، أي في قلبه، حيث تنبعث الأعمال الخبيثة والأعمال الصالحة (راجع مرقس ٧: ١٤–٢٣). أما مع الإنسان الخاطئ، فقد تعامل برحمة لامتناهية وبرفق لا حدود له، فأظهر له حبّ الآب السماوي وحنانه. وفي تعامله هذا، لم يقصد تثبيت الخاطئ في خطيئته، بل دعوته إلى التوبة والاهتداء وتغيير الحياة: فقد قال للمرأة الخاطئة: «وأنا لا أحكم عليكِ. اذهبي ولا تعودي بعد الآن إلى الخطيئة» (يوحنا ٨: ١١). ولهذه الغاية، وضع سر التوبة والمصالحة، ليكون علامة فعالة لرحمة الله وحنانه تجاه الخطأة ومغفرته لهم. من الملاحظ أن كلمات الغفران في سر التوبة في الطقس اللاتيني تبدأ بهذه الكلمات» «الله الآب **الرحيم**...».

الرحمة في العلاقات الدولية

ليست الرحمة نهج تعامل فردي (من شخص لشخص) فحسب، بل إنّها أيضًا نهج للحياة العامة في جميع مرافقها (الحياة السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، وغيرها)، وفي جميع مستوياتها (العالمية والإقليمية والمحلية)، وفي جميع اتجاهاتها (بين الدول والشعوب والفئات والديانات والمذاهب والطوائف...). عندما تصبح الرحمة مكوّنًا من مكوّنات العمل العام، على جميع هذه المستويات، فإنها كفيلة بأن تنقل العالم من دائرة المصالح الأنانية إلى دائرة القيم السامية، وهذا ما يساهم في بناء عالم أفضل لكلّ البشر. إنّ الرحمة عمل سياسيّ بامتياز، إذا أخذنا العمل السياسي بمعناه الكبير والنبيل، اي إدارة الأسرة البشرية على اسس أخلاقية، تكون الرحمة إحدى مكوناتها، بعيدا عن العنف والظلم والتسلّط والهيمنة.

وهذا إرشاد واضح وصريح إلى كبار هذا العالم الذين يتلاعبون اليوم بمقدرات الشعوب في جميع القارات، كما في بلدان أبرشيتنا، بل وفي بلدان الشرق الأوسط كله بصورة خاصة. هو نداء إلى صانعي سياسات الموت في منطقتنا كي يعوا ويعودوا إلى ضميرهم ويغلّبوا قيمة الإنسان، كل إنسان، وفي أي شعب كان، على مصالحهم المادية واستغلالهم لثروات بلاد ليست لهم، وإثارة الفوضى والموت فيها. لعل صانعي هذه السياسات القاتلة للإنسان تسمع نداء الرحمة هذا، نداء من الله، نداء من البابا فرنسيس، نداء من الناس، نداء من كل رعايانا.

شهود للرحمة

في عالم يتوجه أكثر فأكثر نحو القسوة والعنف والظلم، تكمن

دعوة المسيحي في الشهادة للرحمة الإلهية، بالتعاون مع جميع البشر ذوي الإرادة الصالحة. إن بذور الرحمة مزروعة في كافة الديانات. وما علينا إلا أن نفعّل هذه البذور لتأخذ مجراها في حياة البشر، الخاصة والعامة. وهكذا يعمل الجميع، في التضافر والتعاون، على الشهادة لعالم مختلف، يسوده العدل والسلام والمودة والرحمة والاحترام المتبادل. إننا ندعو جميع أبنائنا، في أي موقع كانوا (سياسي أو اقتصادي أو ثقافي أو اجتماعي أو عائلي) أن يحملوا في قلوبهم معاني الرحمة كي تتحول إلى ثقافة مشتركة في العالم الذي نعيش فيه.

القسم الثالث

تقديم براءة البابا فرنسيس حول يوبيل الرحمة

سنستعرض في هذا القسم بعض الفقرات الرئيسية للرسالة بهدف التعمق في رسالة قداسته وتذوقها المباشر.

يصف البابا فرنسيس خصائص فضيلة الرحمة انطلاقًا من **شخص المسيح**

«يسوع المسيح هو وجه رحمة الآب. إن سرّ الإيمان المسيحي قد وجد ملخّصه في هذه الكلمة. لقد أصبحت حيّةً ومرئيّة وبلغت ذروتها في يسوع الناصريّ. إن الآب «الواسع الرحمة» (أف ٢: ٤)، وبعد أن أظهر اسمه لموسى: «إلهٌ رَحيم ورَؤُوف، طَويلُ الأَناة كَثيرُ الرَّحمَة والوَفاء» (خروج ٣٤: ٦)، لم يكفَّ قَطّ عن كشف طَبيعته الإلهيّة بطرق مختلفة وأوقات عديدة من التاريخ (عبر ١: ١ وتابع). فلما «تمّ الزمان» (غلا ٤: ٤)، وعندما كان كلّ شيء مهيَّأً بحسب مخطّطه الخلاصي، أرسل كلمته مولودًا من العذراء مريم ليظهر لنا حبّه بشكل نهائيّ وليظهر لنا ذاته في كلمته المتجسّد. ولهذا قال يسوع نفسه في إنجيل القديس يوحنا: «من رآني رأى الآب» (راجع يو ١٤: ٩). فيسوع الناصري يُظهِرُ لنا رحمة الله في ذاته، إلهًا وإنسانًا، وبتعاليمه وتصرفاته وحضوره بيننا» [١].

الرحمة هي من صفات الله الأساسية

«الرحمة من ميزات الله، وبها تظهر قدرته بشكل خاص، كما يقول توما الأكويني» [٦]. والرحمة ليست ضعفًا، بل تظهر فيها قدرة الله.

«إن كلمات القديس توما الأكويني تُظهر كيف أن الرحمة الإلهيّة ليست أبدًا علامة ضعف بل هي ميزة قدرة الله. ولذلك، نقول مع إحدى صلوات الجماعة القديمة : «اللهم، يا من تتجلّى قدرتك أسمى تجلّ، إذ ترحم وتغفر» [٦]. – وهذا ما يظهر في العهدين، القديم والجديد: إن الله «صبور ورحيم»: بهاتين الكلمتين يصف العهد القديم طبيعة الله. كون الله رحيمًا يجد تأكيدًا ملموسًا في أعمال عديدة من تاريخ الخلاص حيث يتغلّب صلاحه على القصاص والدمار...» [٦].

«في الأمثال المخصصة للرحمة، يُظهر يسوع طبيعة الله كأب لا يستسلم قبل أن يغفر ويزيل الخطيئة ويتغلّب على رفض الإنسان وخطيئته بالشفقة والرحمة. نعرف هذه الأمثال، ثلاثة منها بشكل خاص: مثل الخروف الضائع، مثل الدرهم الضائع ومثل الأب الذي كان له ابنان، ظلَّ أحدُهما وفيًّا لأبيه، أما الثاني فكان ضالًّا ثم عاد إلى أبيه فرحمه وغفر له. (راجع لو ١٥، ١–٣٢). في هذه الأمثال، يظهر فرح الله كلَّما تاب إليه الإنسان مستغفرًا. وفي هذه الأمثال، نجد جوهر الإنجيل وجوهر إيماننا، إذ نجد فيها قوّة الرحمة التي تتغلّب على كلّ شيء فتملأ قلب الإنسان التائب إلى ربّه بالمحبّة وتعزّيه وتقوّيه بالمغفرة» [٩].

وهذه الرحمة الإلهية تجاهنا هي اساس رحمتنا للآخرين

«كما هو معلوم إن الرحمة في الكتاب المقدس هي الكلمة

الأساسيّة للإشارة إلى تصرّف الله معنا. فهو لا يحبُّنا بالقول بل بالعمل أيضًا ويتجلّى لنا حبُّه مرارًا وتكرارًا في صورة مرئيّة وملموسة. من جهة أخرى، لا يمكن للمحبة أبدًا أن تكون كلمة مجرّدة. المحبّة بطبيعتها حياة ملموسة: هي نوايا ومواقف وتصرفات تظهر من خلال التصرّف اليومي. إن رحمة الله لنا هي مسؤوليته تجاهنا. الله سبحانه وتعالى يشعر بأنه مسؤول عنّا، مسؤول عمّن خلق، ولهذا فهو يريد خيرنا ويريد أن يرانا سعداء نفيض بالفرح والطمأنينة. ومثل محبة الله لنا، ومثل رحمة الله لنا، مثل رحمة الأب ومحبته، تكون محبة الأبناء ورحمتهم بعضهم لبعض. الله يحبنا ويرحمنا، وكذلك نحن نقتدي بالله خالقنا فنحبّ ونرحم كلَّ أح وأخت لنا. كما أن الله رحيم، هكذا نحن أيضًا مدعوُّون لنكون رحماء مع بعضنا البعض» [٩].

وبالتالي، فإن الرحمة هي نهج الكنيسة

«الرحمة هي الدعامة التي ترتكز إليها الكنيسة. وكل نشاطها الرعوي، كل نشاطنا الرعوي، يجب أن يكون مُشبعًا بالرحمة والحنان. مثل يسوع نفسه لما كان على الأرض، مثل محبته وحنانه للجموع التي كانت تقبل إليه، نحب نحن إخوتنا، والرعاة منا يجب أن يحبوا رعاياهم. بذلك يعلّمونهم هم أيضًا الرحمة والمحبة بعضهم لبعض. وبذلك يبني كهنة الرعايا والمؤمنون الكنيسة الحيّة الصحيحة، فلا تبقى رعايانا طوائف بعيدة عن روح الكنيسة، وصديقة أو مخاصمة لنا على الصعيد البشري، بل ترتفع هي أيضًا ونرتفع نحن أيضًا معها إلى سُمُوّ رحمة الله وحنانه ومحبّته. ينبغي ألا يفتقر أي جزء من إعلان الكنيسة وشهادتها أمام العالم من الرحمة. إن مصداقية الكنيسة تمر عبر طريق المحبة التي ترحم وترأف» [٩]. والكنيسة هي نحن جميعًا،

المؤمنين، والرعاة، وكهنة الرعايا. كلُّنا بحاجة إلى أن نتعلَّم وندرك ونتصرّف بالرحمة والحنان تجاه من أُلقيت إلينا مسؤولية رعايتهم.

خصوصا تجاه المقهورين والمحرومين

«لنفتح أعيننا كي نرى بؤس العالم، جراح العديد من الإخوة والأخوات المحرومين من الكرامة. لنشعر بأن الله يدعونا إلى الإصغاء إلى صراخ الضعاف والمظلومين، وهم كثيرون في بلداننا العربية عامة، وفي بلدان أبرشيّتنا. الرحمة تدعونا إلى الإصغاء إلى صراخ الفقير والمقهور والمظلوم سياسيا، وغيرِ الموفَّق في بيته وعائلته، وكلّ متعثِّر في حياته. لا يجوز لنا أن ننعم بحياة مطمئنة مكتفية ومن حولنا أناس يتعذَّبون، ولو كانوا واحدًا فقط. مع ان المعذبين من حولنا، في رعايانا، كثيرون. وعندما نقول نحن، فالمقصود هو كل الكنيسة، أي كل المؤمنين، العلمانيين وكهنة الرعايا في مقدمتهم. لنشد بأيدينا على أيديهم، لنجذبهم إلينا كي يشعروا بحرارة حضورنا وصداقتنا وأخوّتنا. لتصبح صرختهم صرختنا، ولنهدم معا حاجز اللامبالاة التي غالبا ما تسود لتخفي الخبث والأنانية في الناس من حولنا وفي عمق نفوسنا أيضًا» [١٥].

يقدّم البابا نظرة إجمالية إلى الرحمة

«نحن بحاجة على الدوام للتأمّل في سرّ الرحمة. إنه مصدر فرح وسكينة وسلام. إنه شرط لخلاصنا. الرحمة: هي كلمةُ تظهر سرّ الثالوث الأقدس. الرحمة: هي العمل النهائي والأسمى الذي من خلاله يأتي الله إلى لقائنا. الرحمة: هي الشريعة الأساسية التي تقيم في قلب كلّ شخص عندما ينظر بعينين صادقتين إلى الأخ الذي يلتقيه في

مسيرة الحياة. الرحمة: هي الدرب الذي يوحد الله بالإنسان، لأنها تفتح القلب على الرجاء باننا محبوبون إلى الأبد بالرغم من خطيئتنا» [٢].

مفهوم اليوبيل الاستثنائي

«هناك أوقات نكون فيها مدعوّين بشكل خاص وبصورة مُلحّة لننعم النظر في الرحمة لنصبح بدورنا علامة فعّالة لعمل الآب. ولَذلك، يقول البابا فرنسيس: أعلنتُ يوبيلًا استثنائيًّا للرحمة كزمن ملائم للكنيسة، لكيّ يعزز شهادة المؤمنين ويفعّلها» [٣].

ثم يتوقف قداسة البابا عند **المراحل الكبرى** لهذه السنة اليوبيلية: الافتتاح على مستوى الكنيسة الجامعة والكنائس المحلية، والاختتام، وما بينهما من مبادرات مختلفة.

«ستُفتتح السنة المقدسة في الثامن من كانون الأول – ديسمبر عام ٢٠١٥. إزاء خطورة الخطيئة يجيب الله بملء المغفرة. فالرحمة ستكون على الدوام أكبر من أية خطيئة ولن يمكن لأحد أن يضع حدًّا لمحبة الله التي تغفر. في عيد سيدتنا مريم العذراء البريئة من كل خطيئة سيفتتح الحبر الأعظم الباب المقدّس، رمزَ بابِ الرحمة، وسيتمكن كل من يدخل من خلاله من اختبار محبة الله الذي يعزّي ويغفر ويملأ بالرجاء» [٣].

«وفي يوم الأحد التالي، الثالث من زمن المجيء، سيُفتح الباب المُقدّس في بازيليكا القديس بطرس بتاريخ ٨ كانون الأول– ديسمبر، ولاحقًا سيُفتح الباب المقدس في الكنائس– البازيليكا البابويّة الأخرى. في الأحد عينه يُفتح في كل كنيسة خاصة بابٌ مشابهٌ للرحمة. وإذا رأى أيُّ أسقفٍ محلّيّ مناسبًا، يمكن فتح «الباب المقدّس» أيضًا في

المزارات التي يقصدها العديد من الحجاج، الذين غالبًا ما يمنحهم الله نعمته وتشملهم رحمته في هذه الأماكن المقدّسة، فيتوبون إلى الله. وبالتالي ستكون كل كنيسة خاصة معنيّة بعيش هذه السنة المقدّسة كزمن استثنائيّ للتجدّد الروحي» [٣].

يُشير البابا فرنسيس إلى أنّ المراحل الرئيسية في اليوبيل تتزامن مع الذكرى السنوية لاختتام **المجمع الفاتيكاني الثاني**، الذي افتتح مرحلة جديدة في تاريخ الكنيسة. فقد ادرك آباء المجمع ضرورة مخاطبة ابناء عصرهم عن الله، بشكل أكثر قابلية للفهم. بعد هدم الجدران التي عزلت الكنيسة عن العالم لفترة طويلة، آن الأوان لإعلان الإنجيل بطريقة جديدة [راجع ٤]. «ستُختتم السنة اليوبيلية في عيد يسوع المسيح ملك الكون، في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٦» [٥].

«مرسلو الرحمة»

سيتم إرسال مرسلي الرحمة إلى الرعايا خصوصا في زمن الصوم الأربعيني:

«سيكونون علامة لعناية الكنيسة الوالدية بشعب الله... سيكونون كهنة أمنحهم سلطان المغفرة حتى للخطايا المحفوظة للكرسي الرسولي، كي تظهر بوضوح سعة مهمتهم. سيكونون، قبل كل شيء، علامة حيّة على كيفيّة قبول الآب للذين يبحثون عن مغفرته. سيكونون رسل الرحمة لأنهم سيصبحون لدى الجميع صانعي لقاء مفعم بالإنسانية، ينبوع تحرّر، غني بالمسؤولية للتغلّب على العقبات واستعادة الحياة الجديدة التي وُلدت في كل واحد مِنّا في المعمودية. وسيهتدون في رسالتهم بكلمات الرسول: «لأنَّ اللهَ أَغلَقَ على جميعِ الناسِ في العِصيانِ ليرحَمَهم جميعًا» (رو ١١: ٣٢). إن الجميعَ

مدعوون إلى قبول النداء إلى الرحمة. وليعش المرسلون هذه الدعوة مركزين النظر على يسوع، «عظيمِ الكهنةِ، كاهنًا رحيمًا مؤتَمنًا عندَ الله» (عب ٢: ١٧)» [١٨].

ويتابع قداسته قائلًا:

«أطلب من الأخوة الأساقفة دعوة واستقبال هؤلاء المرسلين كي يكونوا قبل كل شيء مبشّرين مقنعين بالرحمة... وليُطلب منهم الاحتفال بسر المصالحة للشعب، كي يتيح زمن النعمة المُعطى في السنة اليوبيلية، لأبناء كثيرين بعيدين، وجود الطريق ثانيةً نحو البيت الوالدي. وليذكّر الرعاة المؤمنين، وبنوع خاص خلال زمن الصوم، بالتقدُّم «إلى عرشِ النّعمَةِ لننَالَ رحمَةً ونَلقى حُظوةً» أمام العليّ (عب ٤، ١٦)» [١٨].

العلاقة بين العدالة والرحمة

يقول البابا ان العدالة لا تتوقف عند تطبيق القانون، بل تسير على درب تصل إلى المحبة والتوبة، ويبيّن أهمية ذلك بالنسبة إلى المجتمع المدني:

«لن يكون عديم الجدوى في هذا الإطار التذكير بالعلاقة بين العدالة والرحمة. فهما ليستا أمرين متناقضين، بل هما بُعدان لواقع واحد ينمو تدريجيًا حتى يبلغ ذروته في كمال المحبة. إن العدالة مفهوم جوهري للمجتمع المدني، حينما، وبشكل عام، تتم الإشارة إلى نظام قانونيّ يُطبّق القانون من خلاله. ويُقصد بالعدالة أيضا واجب إعطاء كل واحد حقّه. وفي الكتاب المقدس، تتم الإشارة مرات كثيرة إلى العدالة الإلهية وإلى الله الديّان. ويُقصد هنا عادة بالحفظ الكامل للشريعة والتصرّف... بحسب الوصايا التي أعطاها الله. غير أن هذه

النظرة قد أدّت مرات غير قليلة إلى الوقوع في حرفيّة الشريعة، من خلال تشويه المعنى الأصلي وإخفاء القيمة العميقة للعدالة. وللتغلّب على هذه النظرة المتقيّدة بحرفيّة الشريعة، ينبغي التذكير بأن مفهوم العدالة الجوهريّ في الكتاب المقدس هو الاستسلامِ الواثِق لمشيئة الله» [٢٠].

والمثال هو يسوع المسيح، الذي تخطّى الشريعة التي تُقسّم «الأشخاص بين أبرار وخطأة»:

«يتكلّم يسوع، من جهته، مرات كثيرة على أهمية الإيمان بدلا من التقيّد بالشريعة. وبهذا المعنى، ينبغي علينا أن نفهم كلماته لما كان جالسًا إلى المائدة مع متّى وباقي العشارين والخاطئين، عندما قال للفريسيين الذين كانوا يعارضونه: «فهلَّا تتعلّمونَ معنى هذه الآية: «إنما أُريدُ الرّحمَةَ لا الذّبيحة». فإنّي ما جئتُ لأدعُوَ الأبرارَ بل الخاطئين» (متى ٩: ١٣). وأمام النظرة إلى العدالة التي تُفهَم وكأنّها فقط محافظة على الشريعة التي تدين وتقسِّم الناس إلى أبرار وخطأة، يركّز يسوع على إظهار العطية الكبرى للرحمة التي تبحث عن الخطأة كي تقدّم لهم المغفرة والخلاص. وبسبب نظرته هذه المحرّرة والتي هي ينبوع رؤية جديدة، نفهم لماذا رفض الفريسيون والكتبة أن يفهموا ويقبلوا كلام يسوع. ففي نظر هؤلاء حفظ الشرعة هو الأهم، ولهذا كانوا يضعون أحمالًا على أكتاف الناس، مُبطلين رحمة الآب. إن الدعوة إلى حفظ الشريعة لا يمكن أن تكون عائقًا دون الرحمة ودون الاهتمام بالاحتياجات المتعلقة بكرامة الإنسان» [٢٠].

«إنّما أُريدُ الرّحمةَ لا الذبيحة»

«إن تذكير يسوع بما كتبه النبي هوشع: «فإنّما أُريدُ الرّحمةَ لا

الذبيحة» (٦: ٦)، لهو معبّر جدا بهذا الصدد. يؤكد يسوع أنه من الآن فصاعدًا، ستكون أولية الرحمة هي قاعدة الحياة لتلاميذه. وقد شهد هو نفسه لذلك لما كان يشارك الطعام مع الخطأة. تظهر الرحمة، مرة جديدة، كبُعد جوهري لرسالة يسوع. إنها تحدٍّ حقيقي أمام محاوريه الذين كانوا يتوقفون عند الاحترام الشكلي للشريعة. أما يسوع فيذهب أبعد من الشريعة. ومشاركته مع أولئك الذين كانت الشريعة تعتبرهم خطأة تُبيّن إلى أيّ مدًى تصل رحمته».

قام بولس الرسول أيضا بمسيرة مماثلة. فقبل أن يلتقي المسيح على طريق دمشق، كانت حياته مكرّسة لاتّباع البِرّ الذي تقتضيه الشريعة بشكل لا نقص فيه (راجع فيل ٣: ٦). وقاده الارتداد إلى المسيح إلى تغيير نظرته، لدرجة أنه يؤكد في رسالته لأهل غلاطية «ونحنُ أيضًا آمنّا بالمسيح يسوع لكي نُبرّرَ بالإيمانِ بالمسيح، لا بالعَمَلِ بأحكامِ الشّريعة» (٢: ١٦)».

العدالة وحدها لا تكفي

«لو توقّف الله عند العدالة لن يكون الله بل يصبح ككل البشر الذين يدّعون احترام الشريعة. فالعدالة وحدها لا تكفي وتعلّم الخبرة أن المطالبة بها فقط، تهدّد بتدميرها. ولهذا يذهب الله أبعد من العدالة ليصل الى الرحمة والمغفرة. ولا يعني ذلك التنقيص من قيمة العدالة، بالعكس. فمَن يخطئ يجب أن يُعاقب. غير أن ذلك ليس النهاية، إنما بداية التوبة، كي يُختبَر حنان المغفرة التي هي في أساس عدالة حقيقية» [٢٠].

وفي البند ١٩ من البراءة البابوية، فإننا نجد جوابًا صارمًا لما تعيشه الشعوب هذه الأيام. وهي دعوة مباشرة وحازمة **ضد العنف المنظم وضد**

رعاة الفساد أو المتواطئين فيه. ويتابع قداسته قائلا:

«لتتمكّن كلمة المغفرة من بلوغ الجميع ولا تتركنّ الدعوة لاختبار الرحمة أيّ أحد غير مبالٍ. إن دعوتي إلى التوبة موجّهة بإلحاح أكبر أيضا إلى أولئك الأشخاص البعيدين عن نعمة الله بسبب سلوك حياتهم. وأفكّرُ بنوع خاص في الرجال والنساء الذين ينتمون إلى مجموعة إجرامية، أيًّا تكن. من أجل خيركم، أطلب منكم تغيير حياتكم. أطلب منكم ذلك باسم ابن الله الذي، وإذ حارب الخطيئة، لم يرفض قط أيّ خاطئ. لا تقعوا في الفخ الرهيب للتفكير بأن الحياة متعلّقة بالمال، ومن دونه يصبح كل شيء وكأن لا قيمة له ولا كرامة. هذا وَهمٌ فقط. إننا لا نحمل المال معنا في الآخرة. فالمال لا يعطينا السعادة الحقيقية. إن العنف المُستخدم لتكديس أموال تسيل دمًا لا يجعل الأشخاص أقوياء ولا خالدين. فللجميع، عاجلًا أم آجلًا، ستأتي دينونة الله ولا يستطيع أحد الإفلات منها.لتصل الدعوة نفسها إلى الأشخاص الداعمين أو المتواطئين مع الفساد. إنّ هذه الآفة العفنة في المجتمع هي خطيئة كبيرة تصرخ نحو السماء، لأنها تهدّد أُسس الحياة الفردية والاجتماعية. فالفساد يمنع النظر برجاء إلى المستقبل، لأنه باستبداده وجشعه، يدمّر مشاريع الضعفاء ويسحق أكثرهم فقرًا. إنه شرّ يعشش في الأفعال اليومية لينتشر من ثم في الفضائح العامة... ما مِن أحد يستطيع الشعور بأنه محصّن من هذه التجربة. ولاستئصالها من الحياة الفردية والاجتماعية، لا بدّ من الحكمة، واليقظة، والنزاهة، والشفافية، مع شجاعة التبليغ، حيث يلزم التبليغ. فإذا لم تكافَح علانيةً، تجعل الأشخاص عاجلا أم آجلا متواطئين، وتدمّر الحياة.

إنه الوقت الملائم لتغيير الحياة! إنه الوقت الملائم لتغيير القلب. فأمام الشرّ المسيطر اليوم، وأمام جرائم كثيرة خطيرة، أقول إنّ هذه

السنة هي وقت الإصغاء إلى بكاء الأبرياء والمسلوبي الخيور، والكرامة، والمشاعر، والحياة نفسها. إن الاستمرار في طريق الشر هو مصدر وهْم وحزن لا غير. الحياة الحقيقية هي أمر آخر. وإن الله لن يكفَّ أبدا عن مدّ يده إلينا. إنه دائم الاستعداد للإصغاء» [١٩].

«لا تتعارض الرحمة مع العدالة إنما تعبّر عن تصرّف الله إزاء الخاطئ، مقدّمًا له إمكانية أخرى ليتوب ويرتدّ ويؤمن. إن خبرة النبيّ هوشع تساعدنا لتُظهر لنا تخطّي العدالة في اتجاه الرحمة. إن عصر هذا النبيّ هو من بين العصور الأكثر مأساوية في تاريخ الشعب العبريّ. فالمملكة على وشك الدمار؛ والشعب لم يبق أمينًا للعهد، بل ابتعد عن الله وفَقَد إيمان الآباء. وبحسب المنطق البشري، من العدل أن يفكّر الله برفض الشعب غير الأمين؛ فهو لم يحفظ العهد المُبرَم، ويستحقّ بالتالي العقاب الواجب، أي المنفى. وتشهد على ذلك كلمات النبيّ: «لن يَرجعَ إلى أرض مِصر، وأشُّورُ هو يكونُ ملكَهُ، وبما أنّهم أبَوا أن يَرجعوا إليّ» (هو ١١: ٥). ومع ذلك، فبعد ردة الفعل هذه التي تستند للبرّ، يبدّل النبي لهجته بطريقة جذرية ويُظهر الوجه الحقيقي لله: «قد انقَلَبَ فيّ فؤادي واضطَرَمَتْ أحشائي. لا أُطلقُ حدّةَ غَضَبي ولا أعودُ إلى تدمير أفرائيم لأنّي أنا الله لا إنسان والقدُّوسُ في وسطك فلَن آتيَ ساخطًا» (١١: ٨. ٩). ويعلّق القديس أغسطينُس على كلمات النبيّ بالقول:» من الأسهل أن يمسك الله عنا غضبه، ولكنه لا يمسك عنا رحمته». وهكذا بالفعل. إن غضب الله يدوم لحظة، أمّا رحمته فتدوم إلى الأبد.

في البند ٢٢ تتجلى الإشارة الى **الغفران** كموضوع تقليدي في سنة الوبيل:

«يتضمّن اليوبيل أيضا الإشارة إلى الغفران الذي يكتسب في «سنة

الرحمة المقدسة» أهمية خاصة. إن غفران الله لخطايانا لا يعرف حدودا. ففي موت يسوع المسيح وقيامته، يُظهر الله بشكل جليٍّ محبته هذه إلى أيّ حد تصل، حتى تصل إلى القضاء على خطيئة البشر. من الممكن أن نتصالح مع الله بوساطة الكنسة ومن خلال السر الفصحي (أي موت يسوع وقيامته، فمن موت خطيئتنا نقوم نحن أيضا مع المسيح). إن الله مستعد دائما للمغفرة ولا يتعب أبدا من تقديمها بطريقة جديدة على الدوام وغير منتظرَة. ومع ذلك، فنحن كلّنا نختبر الخطيئة. نعلم أننا قد دُعينا إلى الكمال (راجع متى ٥: ٤٨)، ولكننا نشعر بشدّة بثقلِ الخطيئة. وإذ ندرك قوة النعمة التي تبدّلنا، نختبر أيضا قوة الخطيئةِ التي تتحكّم بنا. وبالرغم من المغفرة، نحمل في حياتنا التناقضات التي هي نتيجة خطايانا. في سر المصالحة، يغفر الله الخطايا، التي هي حقا ممحوّة؛ ومع ذلك، يبقى الأثر السلبي الذي تركته الخطايا في تصرفاتنا وأفكارنا. غير أن رحمة الله هي أقوى بكثير من ذلك أيضا. فهي تصبح غفران الآب الذي من خلال الكنيسة يصل إلى الخاطئ المغفور له ويحرّره من كل رواسب أثر الخطيئة، ويؤهله على التصرّف والنموّ في المحبة بدل الوقوع مجددًا في الخطيئة» [٢٢].

الرحمة في مختلف الديانات (المسيحية والاسلام واليهودية)

«تمتلك الرحمة قيمة تذهب أبعد من حدود الكنيسة. إنها تربطنا مع اليهودية والإسلام اللذين يعتبرانها من بين أبرز صفات الله... إنّ صفحات العهد القديم ملأى بالرحمة... إن الإسلام، من جهته، يضع الرحمن الرحيم من بين أسماء الخالق. وهذا الابتهال هو غالبا على شفاه المؤمنين المسلمين الذين يشعرون بأن الرحمة ترافقهم وتعضدهم في ضعفهم اليومي. وهم أيضا يؤمنون بأن ما مِن أحد يستطيع أن يضع

حدًّا للرحمة الإلهية لأن أبوابها مفتوحة دائمًا.
لتعزز هذه السنة اليوبيلية التي نريد أن نعيشها في الرحمة، اللقاء مع هاتين الديانتين، ولتجعلنا منفتحين على الحوار من أجل معرفتنا وفهمنا بعضنا لبعض بشكل أفضل، ولتمح كل أشكال الانغلاق والاحتقار وتبعد شتى اشكال العنف والتمييز» [٢٢].

خاتمـة

«تعيش الكنيسة شركة القديسين. وفي الإفخارستيا، تتحقق هذه الشركة التي هي عطية من الله، كاتحاد روحي يربطنا نحن المؤمنين مع القديسين والطوباويين الذين لا يُحصى عددهم (راجع رؤيا ٧: ٤). إن قداستهم تأتي لتُعين ضعفنا، وهكذا فإن الأم الكنيسة قادرة بصلاتها وحياتها أن تأتي لملاقاة ضعف البعض مع قداسة آخرين» [٢٢].

وهنا لا يسعنا إلا أن نذكر القديستين ماري الفونسين غطاس ومريم بواردي ليسوع المصلوب، اللتين أعلنتهما الكنيسة الجامعة مؤخرا قديستين، لتكونا لنا دليلا في حجتنا الأرضية. وكلاهما عاشتا الرحمة الإلهية في اسمى معانيها. فقد اختبرتا رحمة الله لهما، وفاضت هذه الرحمة لتكون نهج حياة في تعاملهما مع القريب.

وفي خاتمة رسالته يدعو قداسته الكنيسة إلى إعلان رحمة الله: »لا نتعبنّ ابدًا من تقديم الرحمة... ولتكن الكنيسة صوت كل رجل وامرأة، ولتردد بثقة وبلا انقطاع: «اذكر، يا رب، حنانك ومراحمك فإنها قائمة منذ أزلك.» [٢٥]

لنعش اليوبيل بعمق سائلين الآب مغفرة الخطايا ونشر غفرانه الرحيم ولنتبنّ الرحمة في حياتنا العامة والخاصة، المدنية والكنسية، والعائلية والاجتماعية، فنكون علامة رحمة الله في كل مرافق حياتنا.

غمرنا الآب السماوي بوافر رحمته، في المسيح، وبقوة الروح القدس، وغمر العالم بفيض محبته ورأفته وحنانه.

† البطريرك فؤاد الطوال